البناء

السنة السادسة / الاثنين / 2 شباط 2015 / العدد 1699
Sixth year / Monday / 2 February 2015 / Issue No. 1699

المعارضة وحق الشعب السوري في التغيير الديمقراطي

حميدي العبدالله

البيان الذي صدر في أعقاب اجتماعات قوى معارضة الداخل ومعارضة الخارج في القاهرة، طالب بنقل السلطة وتشكيل هيئة انتقالية، وهو المطلب الذي طالما ردّدته قوى المعارضة، ولا سيما الائتلاف، والدول الداعمة له منذ صياغة تفاهمات ما عُرف بـ«جنيف 1»، كما طالب بأن يكون ذلك الانتقال تحت رعاية دولية وإقليمية.

الرعاية الدولية والإقليمية تعني الوصاية الخارجية على سورية، وهذا يشبه الانتداب الذي فرضته الحكومات الغربية على المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى بذريعة أنّ شعوب المنطقة التي خرجت من سيطرة السلطنة العثمانية غير قادرة على إدارة شؤونها بنفسها، وتبيّن أنّ الانتداب هو استعمار كامل الأوصاف للمنطقة اقتضى قيام ثورات كثيرة لإزاحته عن كاهل شعوب المنطقة، واليوم دعوة المعارضة إلى الرعاية الدولية والإقليمية لأيّ حلّ في سورية هي دعوة إلى فرض الوصاية والانتداب وإحياء التجربة الاستعمارية في سورية، واعتداء صريح على حق الشعب السوري في تقرير مصيره بنفسه، بعيداً عن كلّ أشكال النفوذ والوصاية الخارجية.

أما انتقال السلطة بقرار يتخذ من قبل جماعات لا تمثل إلا نفسها، وفي أحسن الأحوال تمثل أقلية ضئيلة، كما هو حال جماعات المعارضة، سواء الائتلاف أو هيئة التنسيق، فهو اعتداء على الديمقراطية وعلى حق الشعب السوري المقدّس في أن يقرّر بنفسه من يحكمه ومن لا يحكمه، وهذا الحق عادةً يجسّد بالاحتكام إلى صناديق الاقتراع.

طبعاً ثمة ذريعة يتلطى وراءها المعارضون لرفض الاحتكام إلى الشعب وإلى صناديق الاقتراع، وهي ذريعة عدم ضمان نزاهة الاستفتاء أو الانتخاب، ولو كانت هذه الذريعة هي التي تفسّر مواقف قوى المعارضة لطالبوا بضمانات عبر مراقبة دولية للانتخابات لضمان نزاهتها ولما رفضوا مبدأ الاحتكام إلى الشعب وإلى صناديق الاقتراع، أي إلى الديمقراطية التي طالما تغنوا بها.

لكن قوى المعارضة على قناعة بأنّ مستوى التأييد لها في صفوف الشعب السوري، وأيضاً خلافاتها الحادة، وصراعات مرجعياتها الدولية والإقليمية على النفوذ، يجعل إمكانية ربحها للمعركة الديمقراطية في مواجهة الحكومة السورية معروفة سلفاً، ولهذا السبب، وليس لأيّ سبب آخر، تمسّكت المعارضة دائماً برفض الاحتكام إلى الشعب وإلى صناديق الاقتراع، وجاء الإقبال في المشاركة بالانتخابات الرئاسية في عام 2014 ليعزز هذه القناعة، ولذلك تطالب المعارضة بانتقال للسلطة عن طريق الضغط الخارجي، ومن خلال مصادرة حقوق الشعب السوري، وخيانة المبدأ الديمقراطي، والذي طالما زعمت أنها تتبناه في مواجهة «ديكتاتورية النظام الحالي».

لكن من المعروف أنّ الإصرار على صيغة «جنيف 1» بما تشكله من عملية انتقال بيروقراطية للسلطة عن طريق العنف والإرهاب وتحميل الدولة السورية المسؤولية عن الحرب الدائرة والمستمرة في سورية، والتي كبّدت البلاد خسائر كارثية في الأرواح والممتلكات، والتمسّك بهذه الأطروحة والإصرار عليها، يعني مواصلة هذا الخيار الانتحاري.

موسكو مسار سيتواصل على إيقاع قوة الدولة

لا يمكن أحداً أن يتخيّل أنّ مسار الحوار الذي بدأ في موسكو هو مجرّد فكرة ولدت في رأس سيرغي لافروف وزير الخارجية الروسيا، وحصلت على تأييد سورية كرمى لموقف روسيا التاريخي مع سورية.

ما بدأ في موسكو هو العمل السياسي المواكب للانتصارات العسكرية والسياسية على ضفتين، الأولى هي الضفة التي يمثلها قتال الجيش السوري خلال سنوات أربع أثبت خلالها أنه جيش لا يقهر، وانه مثال الجيوش التي تمثل إرادة شعبها بحماية وحدة التراب وصيانة النسيج الاجتماعي من التفتيت، والدفاع عن السيادة في وجه التدخلات الأجنبية، وحماية الثوابت الوطنية والقومية وفي طليعتها العداء لـ«إسرائيل» والتمسك بخيار المقاومة، وصولاً إلى تحرير الجولان وإعادة حقوق العرب في فلسطين.

لولا هذه الانتصارات، هل كان ممكناً للدكتور قدري جميل ان يكون جزءاً من مشهد معارضة تصيغ مركزاً سياسياً على مائدة حوار مع الدولة، أو هل كان ممكناً لكلّ مكوّنات المعارضة التي تشكلت أحزابها في كنف هذه الانتصارات أن تكون حيث كانت في موسكو، بل حتى المكوّنين الأكبر في حوار موسكو، المكوّن الكردي للجان الحماية الشعبية الذي يقاتل «داعش» وينتصر، وهيئة التنسيق الوطنية المعارضة، والتي تقول في الدولة ما لا يُقال، ودافعت عن السلاح والمسلحين بما لا يدافع عنه، هل كان وجودهما ممكناً في مشهد ولادة قيادة معارضة للحوار مع الدولة لولا انتصارات الجيش السوري؟

الأكيد أنّ القوى التي تملك دفة الحرب ضدّ سورية كانت قد صنعت واجهاتها المعارضة منذ البدايات، وفرضت الفيتو على حضور كلّ هذه المكوّنات، وحصرت الحضور في أيّ منتدى حواري تشترك فيه المعارضة بممثليها وعملائها، واستثنت حتى من يخالفون الدولة السورية بصورة جذرية لمجرّد أنهم ليسوا من جماعتها، ولا يتلقون منها الأوامر، ومنح «الإخوان المسلمون» كما منحت تركيا حق الفيتو، لأنّ المكوّن الممثل للمعارضة هو ستارة للحرب وليس عنواناً للحوار، والمطلوب منه كما حصل في جنيف إفشال الحوار لا السعي إلى إنجاحه، وتبرير المزيد من نزف دماء السوريين لا وقف النزف.

انتصارات الجيش السوري غيّرت المشهد، وأنهت ما سُمّي بـ«الجيش الحر»، وأسقطت أكذوبة المعارضة التي يقودها الخارج، وصار المشهد العسكري بين الجيش السوري في ضفة و«داعش» و«النصرة» في ضفة مقابلة حصراً، وصار المعارضون متساوين في العجز العسكري، والمعيار بالتنافس التمثيلي بينهم في الموقف السياسي الجادّ في السعي إلى الحوار ووقف نزف الدم ومكافحة الإرهاب.

في السياسة، كانت الانتخابات الرئاسية مشهداً كاشفاً للمسرح على الحالة الشعبية واتجاهاتها فسقطت شعارات «الشعب يريد...»، وظهر أن الشعب يريد دولته ورئيسه وجيشه، فهبطت أسهم المتسلقين وارتفعت أسهم معارضين آخرين، أو على الأقل تساوى الجميع في ميزان التمثيل الشعبي، بانتظار ما تقوله صناديق الاقتراع، وردّ الاعتبار لمعيار الموقف السياسي من الحلّ التفاوضي بديلاً عن حلّ عسكري تمسّكت به المعارضة المستأجرة، وثبت أنه لم يكن إلا غطاء للإرهاب والتدخل الخارجي.

مع الحلقة الأولى من موسكو يتأكد أنّ هذا المسار سيستمرّ بقدر ما يقوى مشروع الدولة، عسكرياً بالمزيد من الانتصارات، وسياسياً بالمزيد من الالتفاف الشعبي والسياسي حول الدولة ورئيسها وجيشها.

الذين يريدون لموسكو النجاح من المعارضين، عليهم أن يتذكروا ذلك جيداً، وأن يعلموا أنّ مهمّتهم بين جولة وجولة في موسكو الإسهام في تدعيم شرعية مؤسسات دولتهم رئاسة وجيشاً ودستوراً وحمايتها، وأن يحصروا خطابهم المعارض بما يرونه من إصلاحات سياسية ودستورية من جهة، وبالتمثيل البرلماني والحكومي ومدى تعبيره عن الشعب السوري، وبالسياسات الحكومية ومدى صوابيتها لحلّ مشاكل الشعب من جهة مقابلة، حتى تقترب اللحظة التي يصير فيها الحلّ السياسي ممكناً، فتكشف صناديق الاقتراع أحجام الجميع وتعطي الجوائز للمستحقين.

«توب نيوز»

«القسام»؟ لا يا جنرال سيسي

ارتكبت حركة حماس خطأ استراتيجيا باعتبار هويتها الإخوانية موجهاً لسياساتها بعد تقدّم تنظيم الإخوان نحو الحكم بتغطية دولية مشبوهة خلال ما سُمّي بـ«الربيع العربي».

بعض حماس شارك في القتال في سورية ومصر ضدّ الجيش والدولة.

بقيت سورية في ذروة تورّط حماس في خيارها العدائي تنأى عن الدخول في سجال معها كي لا يصيب السجال همة مقاومي «القسام» بأذى وهم يقاتلون الاحتلال، فكيف يكون الاستهداف لأشرف الناس وهم المقاومون و«القسام» في طليعتهم.

بقيت «القسام» بعيدة عن مواقف قيادة حماس التابع للروزنامة الإخوانية، وبقي جدول أعمال «القسام» مقاوماً، وبقي الاستعداد لقتال الاحتلال.

نجح «القسام» في فرض التراجع على قيادة حماس وبدأت الاستدارة للعودة إلى محور المقاومة.

الوجع المصري والسوري مفهوم.

ملاحقة المتورّطين من حماس و«القسام» بأعمال ضدّ الجيش المصري ومطالبة «القسام» بالتعاون الأمني أمر طبيعي ومشروع.

حرام لمصر ولفلسطين تصنيف «القسام» إرهاباً.

نتمنى أن يتمثل الجنرال السيسي بالرئيس الأسد كرمى للتاريخ والجغرافيا ومصر وفلسطين، وكي لا يبقى الاحتلال يعوّض خسائره بحماقاتنا.

غلطة الجنرال بألف.

التعليق السياسي

شبعا المقاومة: الأبعاد الاستراتيجية! ما بعد شبعا ليس كما قبلها...

■ نصار إبراهيم

العدوان «الإسرائيلي» الذي جرى يوم 18 كانون الثاني 2015 ضدّ مجموعة مقاومة لحزب الله في القنيطرة السورية وراح ضحيته سبعة مقاومين من بينهم جنرال إيراني، لم يكن مجرّد عدوان عادي أو عابر، لهذا فإنّ ردّ المقاومة عليه في شبعا المحتلة يوم 28 كانون الثاني 2015، هو أيضاً لم يكن رداً تكتيكياً عابراً أو انتقامياً... بل ردّ استراتيجي يضرب في عمق الوعي «الإسرائيلي» الذي اعتاد ثقافة القوة والمبادرة إلى الهجوم وترويع الخصم وشلّ حركته واستنزافه وإهانته وتركيعه...

لهذا فهو ردّ فاصل ونقطة تحوّل استراتيجي في الصراع العربي – «الإسرائيلي» بكلّ المقاييس... هذا ليس تقييماً عاطفياً أو انفعالياً... بل تقييم يستند إلى قراءة موضوعية في مقدمات وظروف وتبعات العملية واستهدافاتها... وما سيترتب عليها من تحوّلات وإزاحات... في مواقف واستراتيجيات المقاومة في المرحلة المقبلة.

فالعدوان الذي شنته «إسرائيل» ضدّ المقاومة في القنيطرة لم يكن مجرّد عملية اغتيال عادية، بل نقلة عسكرية وسياسية استهدفت «إسرائيل» من ورائها تغيير قواعد الاشتباك المحلي والإقليمي، بل والعالمي، بما يقلب استراتيجيات التحوّل التي بدأت تشهدها المنطقة في ظلّ فشل إسقاط الدولة الوطنية القومية السورية ومعها محور المقاومة...

كما أنها لم تكن عملية استخبارية روتينية، بل عملية محسوبة ومقدرة ترتبط برهانات ومقامرات عميقة... أساسها ترسيخ المعادلة التي تستوطن العقل السياسي والأمني والاجتماعي «الإسرائيلي»، والتي تتكثف وترتكز على مبدأ «حق إسرائيل» المطلق في الهجوم متى وأين شاءت... كترجمة لـ«حق» مكتسب تحاول «إسرائيل» ومنذ بداية الصراع العربي – الصهيوني وبكلّ ما أوتيت من قوة الحفاظ عليه... وهذا «الحق» يتحرك في سياق الإقرار الشامل بـ«حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها» بما في ذلك مهاجمة الأخطار والتهديدات المحتملة... في هذا السياق رأت «إسرائيل» أنّ اللحظة مناسبة لتوجيه ضربة عنيفة للمقاومة وإظهارها في موقف الضعف والعجز... وإعادتها إلى المربع صفر.

وبما أنّ المقاومة اللبنانية هي جزء من محور إقليمي أشمل، إذن فإنّ هدف العملية «الإسرائيلية» يمتدّ بالتأكيد ليغطي مساحة الصراع وإظهار عجز محور المقاومة بكامله... نجاح «إسرائيل» في تحقيق هذه الأهداف يعني ترميم الاختراقات والتآكل الذي تعرّضت له قوتها الردعية من جانب، وإعادة تثبيت تفوّقها الاستراتيجي والميداني بكلّ ما يعنيه ذلك من نتائج سياسية وأمنية وغيرها من جانب آخر. وبهذا يجري تفريغ انتصارات وتضحيات محور المقاومة المتراكمة منذ عام 2000 من مضمونها تماماً، ويجعل منها مجرّد نمر من ورق...

أما على الصعيد الإقليمي... فقد استهدفت «إسرائيل» استثمار حالة الاستنزاف التي تعيشها الدولة الوطنية السورية منذ أربع سنوات وانشغال الجيش العربي السوري في الحرب الطاحنة ضدّ الإرهاب المنظم المدعوم عربياً وعالمياً... وبالتالي أإظهار عجز وضعف المعادلة التي رسمها الرئيس بشار الأسد بخصوص المقاومة وتحرير الجولان...

وبالتالي أرادت «إسرائيل» الردّ على معادلة الرئيس الأسد بنقل الاشتباك إلى الأرض السورية بما يمهّد لتثبيت حزام «أنطوان لحد» سوري على امتداد الجولان المحتل... ولاحقاً الانتقال إلى تهديد العمق السوري واستتباعاً العمق اللبناني... وكلّ ذلك سيتمّ ترصيده فوراً على شكل أوراق اعتماد سياسية سواء على صعيد التفاوض بين الدولة السورية وما يُسمّى المعارضة... والقول إنّ يد «إسرائيل» هي اليد الطولى في المنطقة... وبالتالي يد أدواتها...

يضاف إلى ذلك إظهار إيران كقوة عاجزة ومحدودة مما يعني تزويد الولايات المتحدة بقوة ضغط فعّالة لقلب معادلات التفاوض حول الملف النووي ونقلها من مستوى الندية والاحترام وإعادتها إلى زاوية التفاوض بين طرف قوي وطرف ضعيف ومهان... والأهمّ هنا أنّ «إسرائيل» ستقدم نفسها باعتبارها القوة التي أنقذت الولايات المتحدة والغرب كله من صفقة نووية ستغيّر معادلات الإقليم بالكامل... أيّ أنّ «السوبرمان الإسرائيلي» وبضربية واحدة أدّب الجميع وكشف عجزهم وضعفهم... مقابل جبروت «إسرائيل» التي انتظرت اللحظة المناسبة لتكشف عن بأسها حتى لحلفائها وأدواتها...

هذا ما راهنت عليه «إسرائيل»... وربما هذا ما تمنّته، وربما، وهو الأقرب للمنطق، رهانها على توريط الولايات المتحدة لخوض الحرب كبديل عنها... بمعنى أنها ستطلق الطلقة الأولى ثم تتوارى في الخندق كي يتولى غيرها القتال عنها... هكذا فكرت... هكذا راهنت... أو هكذا قادها غباء قوتها المفترضة، والأهم غباء قراءتها الاستراتيجية الخاطئة تماماً لتقع في المصيدة... فبدت في النهاية وكأنها هي آخر من يعلم، وهي الوحيدة الغافلة التي تعيش في غيبوبة نفسية وسياسية، أيّ على خلاف الجميع الذي كان يدرك حقيقة ما يجري في المنطقة وما حصل ويحصل فيها من تبدّلات عميقة على صعيد موازين القوى... ولهذا يتجه الجميع إلى المساومات والمفاوضات.

انطلاقاً من كلّ ما تقدم يجب أن تجري قراءة عملية حزب الله الرائعة في مزارع شبعا... أيّ كردّ استراتيجي على معادلات استراتيجية قدرتها ورسمتها «إسرائيل» بأناة ووعي وهي تقوم بعدوانها على القنيطرة السورية، ايّ أنه ردّ يوازي ويعادل الأهداف التي حددتها «إسرائيل» من وراء عدوانها.

بناء على وعي المقاومة وبعمق لهذه الأهداف... وعلى هذا رسمت ردّها وحسمت خياراتها، وفي ذات اللحظة الاستعداد لكلّ الخيارات المباشرة والحاسمة، بما في ذلك الذهاب إلى مواجهة مفتوحة على كلّ الاحتمالات... هكذا ومنذ اللحظة الأولى تحركت المقاومة لكي ترسل رسائلها وكأنها كانت تنتظر هذه الحماقة أو الخطأ «الإسرائيلي» الاستراتيجي لكي تصول صولتها وتعيد رسم المعادلات بما يتجاوز تماماً ما كان قائماً وسائداً... لهذا رفضت المقاومة وحلفاؤها كلّ الوساطات التي حاولت ضبط الإيقاع... فكان القرار الحاسم والنهائي: الردّ قادم لا محالة ولن يتأخر... وسيكون مزلزلاً بما يوازي الزلزال الذي راهنت عليه «إسرائيل» من وراء عدوانها...

إذن ردّ شبعا كان رداً استراتيجياً بكلّ المعاني وبمختلف الأبعاد... لأنه جاء من على قاعدة أنّ محور المقاومة مستعدّ للحرب الشاملة فتفضلوا إنْ أردتم وغير ذلك لتبتلعوا أيّ ردّ سيقوم به المحور وأنتم تبتسمون... لقد كان القرار: لا خطوة واحدة إلى الخلف... ليس هذا فحسب بل وسنقوم بثلاث خطوات إلى الأمام... أولها أنّ ما أنجزه محور المقاومة متمثلاً بصمود الدولة الوطنية السورية وجيشها العقائدي وقيادتها البارعة، وبالتالي فإنّ هزيمة مشروع الهيمنة الاستعماري الرجعي «الإسرائيلي» التركي الإرهابي... ستكون نهائية...

وثانيها أنّ خط المقاومة سيمتدّ على طول الحدود اللبنانية السورية كحق مشرّع ومشروع ولا ينتظر إذناً أو غطاء من أحد سوى مشروعية الحق والأرض وأخلاقية المقاومة... من هنا يمكن فهم إطلاق الصاروخين باتجاه الجولان العربي السوري عشية عملية شبعا... ومن لا يرى الأبعاد العميقة لهذين الصاروخين عليه أن يعيد النظر... فاليوم صاروخان وغداً عبوات ناسفة وبعدها اقتحام وقصف وهكذا... لقد انتهت مرحلة الهدوء في الجولان...

أما البعد الثالث فقد جاء من خلال ردّ الفعل الأميركي والغربي الباهت... بل وربما الغاضب على المراهقة «الإسرائيلية»... فإيران تجلس على طاولة التفاوض ليس من موقع الضعيف والمستجدي بل من موقف المقتدر المستعدّ لكلّ الخيارات... أميركا تدرك ذلك... وتدرك أنّ «إسرائيل» في هذه المرة وغيرها ستدفع الثمن من رصيدها الاستراتيجي... بل وستجعل كلّ حلفائها العالميين والإقليميين يبدون معها في موقف العاجز بسبب تهوّرها وحماقتها... بمعنى أنّ ما أرادته «إسرائيل» فرصة لإثبات يدها الطولى تمخض عن معادلة أثبتت فيها المقاومة أنها هي صاحبة اليد الطولى... بل وأنّ جبهة المقاومة هي صاحبة المبادرة واليد الطولى في ظلّ عجز وارتباك جبهة الخصم الممتدّة بكاملها...

هذه هي أبعاد عملية شبعا... إنها نقلة استرايجية على رقعة الصراع وفي وضح النهار بالمعنى العسكري والسياسي والنفسي والمعنوي والأمني... وهذه النقلة لم تنفذ خلسة، بل عبر إعلان مباشر صريح وحاسم: سنضربكم فاستعدوا... وهكذا جرى لقد استعدّوا من أقصاهم إلى أقصاهم... ومع ذلك ضربتهم المقاومة على الوجه تماماً وفي وضح النهار... الأمر الذي يمنح المقاومة تفوّقاً سياسياً وأمنياً وأخلاقياً وعسكرياً شاملاً مقارنة بعملية «إسرائيل» التي جاءت خلسة وتسللاً...

لقد كانت «إسرائيل» في أقصى جاهزيتها واستنفارها وتحفزها... وقد كان الهدف عسكرياً بامتياز... وفي منطقة صعبة جغرافياً... ومع ذلك كانت الضربة مفاجئة وصاعقة... وكأنها حصلت و«إسرائيل» في عز نومها... تخيّلوا مصارعاً يعتقد نفسه أنه جبار وعملاق لا يهزم... لا يمسّه ولا يتجرأ عليه أحد في الكون، ولهذا يعربد كما يشاء... فجأة ينهض له من بين الجمهور العادي جداً... رجل كريم بهيّ شجاع، أنيق ورشيق... رجل ذو إرادة وبصر وبصيرة وقد تهيّأ واستعدّ على طريقته... يقول الرجل للمصارع المأخوذ بجبروته وأمام العالم أجمع: اسمع يا هذا تهيأ واستعدّ سأضربك... فيقف المصارع بكامل استعداده مستنفراً ومستفزاً وجاهزاً... يتلفت ويراقب ويحشد ذاته لكي يجعل من هذا الرجل أضحوكة أمام العالم... وفي لحظة غطرسته واستعراضه لقواه وعضلاته يتلقى من الرجل البهيّ الواقف أمامه مباشرة ووجهاً لوجه صفعة هائلة على وجهه وأمام جمهوره والعالم... فيتزلزل ويهتز ويهوي... وهو يتلفت حوله من دون أن يدري كيف حصل ذلك... لقد كان مستعداً تماماً فكيف حصل ما حصل... لقد حصل ما حصل لأنّ ذلك المغرور ليس كما يقول عن نفسه والرجل الشجاع هو أكثر بكثير مما يقول... هذا ما جرى.

لكلّ هذا وسواه أقول إنّ ما بعد صولة المقاومة في شبعا أبداً لن يعود إلى ما كان قبلها...

وعلى قوى المقاومة كفكرة وموقف وسياسة وثقافة أن تدرك هذه الحقيقة... وأن تستعدّ للانطلاق ... لكي تجعل من ضربة شبعا مقدمة لسلسة من الانقلابات المدهشة سياسياً وعسكرياً وشعبياً ومعنوياً...

خلاصة القول إنّ على العرب من محيطهم إلى خليجهم أن يعرفوا أنّ زمن «إسرائيل» الجبارة بالمعنى الاستراتيجي قد ولى... فهي لم تعد تخيف أحداً... سوى الأدوات الرخيصة والجبناء... لقد انتهى زمن الغطرسة والعربدة... وعلى أذنابها وأدواتها أن يلمّوا ذواتهم، فالأمة العربية لن تعود بعد أربع سنوات من المواجهة الطاحنة للنقطة التي كانت قبلها... إنه زمن الانتصارات...

المجد للمقاومة... المجد للقابضين على الفكرة... المجد لمن اختاروا ولم يقامروا...

خطاب نصر الله فكّ الاشتباك ورسم الخريطة

جهاد أيوب

بعد خطاب الفصل الذي أعلنه السيد حسن نصرالله بعد ظهر الجمعة الفائت من الضاحية الجنوبية، وهو ردّ فيه رايات النصر بعد عملية الغدر الصهيوني في القنيطرة سترسم الكثير من معالم وخطوط الاشتباك، وخرائط جديدة لمنطقة أشبعت بالنار والبارود والدماء مع «الإسرائيلي» المحتلّ لفلسطين العربية، السيد أراد أن يعطي الدروس لأكثر من جهة، دروس نابعة من جامعة التجربة والفعل، وهذه الدروس ليست لليهود فقط بل لكلّ المستعربين وحكام الأعراب بمختلف الطوائف، وتحديداً من يدعم الزمر التكفيرية، وبنى ويبني البيئة الحاضنة لهذه الزمر المتعاملة مع الكيان الصهيوني بفجور إعلانها الالتزام الطائفي والمذهبي، وأيضاً حمل رسائل لقيادات الغرب ببساطة الواضع النقاط على الحروف، إضافة إلى جمهور المقاومة المنتصر بكرامة الصبر والتضحية والدعم الروحي والمعنوي والبيئي لشباب المقاومة وفكر المقاومة وتحرك المقاومة وإعلام المقاومة.

في البداية لا بدّ من الاعتراف أنّ السيد يكاد يكون الشخصية العربية والإسلامية الوحيدة في هذا العصر ينفذ ومن ثم يقول، لا بل أكد انّ المرحلة لا تتطلب الكثير من الكلام بل العمل بصمت وبمزيد من تحقيق الأهداف التي تبني الخط والمستقبل رغم قساوة الظروف، وهذه المرة جاءت الجعجعة الكلامية من ناحية زعامات العدو ومن يسير خلفها في الداخل اللبناني بينما رجالات المقاومة رفضت الكلام، وتركت لجمهورها اليقظة والانتظار، ونظراً لقيمة الحدث والبوح من قبل السيد والمقاومة لن نشير إلى صيصان الداخل في جعجعتهم ضدّ قيام المقاومة بالردّ على جريمة القنيطرة، وكأنهم بثرثراتهم يدعمون كلّ ما تقوم به «إسرائيل» من قتلنا وما علينا غير البكاء، لذلك لا مجال للخوض في ما يطبخونه من سمّ سيرتدّ عليهم، وهو ارتدّ عليهم أصلاً في سورية واليمن ولبنان.

خطاب السيد أسّس لمرحلة جديدة في كيفية الاشتباك مع الصهاينة وأذيالها في الداخل العربي، ووضع السهم الأول في طريقة السير السياسي والدبلوماسي لكلّ من يهدّد أو يلمّح إلى الحرب، هو حدّد الهدف، وأصاب المعنى، وقيّم الطريق، ورسم ما سيسير عليه ذاك العدو الغبي، نعم عدونا من الأغبياء لأنه يفتعل ما يبرّر أفعالنا وردّنا، فاليوم لم نعد نحن المفعول به، أو الجهة التي تتلقى الصفعات، انما خطوط الردع انطلقت من عندنا كي نبكي ونؤلم ونتصرّف بعدونا، ومن سيغتال شبابنا المجاهد المقاوم سيغتال في صميم وجوده وفي عقر الدار التي سرقها من أهلها وأصحابها.

والواضح أنّ عملية المقاومة أنهت حرباً كانت تخطط لها «إسرائيل» بدعم من حكومات أعرابية كالعادة، «إسرائيل» تعمّدت عن علم وجبروت ومعرفة اغتيال قادة القنيطرة وانتظرت ردّ فعل المقاومة، وكانت تعتقد من خلال مخبريها في بعض الأنظمة الأعرابية أنّ الحزب منهك ولن يستطع القتال على أكثر من جبهة، خيّل لها أنّ الردّ لن يحدث من قبل المقاومة خوفاً من حرب هي ليست جاهزة لها، وأنّ الداخل اللبناني جراء بعض المرتزقة فيه حاصر المقاومة شعبياً واقتصادياً وإعلامياً مما يمنعها من الخوض بحرب جديدة، وبعد عمليته الغادرة في القنيطرة أبلغ الكيان الخائف والقلق والمريض بعض الدبلوماسية الغربية بأنه سيشنّ حرباً على لبنان متقطعة تعتمد على القيام باغتيالات قادة المقاومة، لكن النتيجة جاءت مغايرة لكلّ التوقعات، والردّ جاء في وضح النهار، ولو كان جيش العدو شفافاً لأعلن عن عدد قتلاه، وما أصاب جنوده من هلع وخوف وأمراض نفسية، ولكننا نتعامل مع عدو يكبر وللأسف جراء التناقضات العربية، وخيانات بعض الأنظمة الأعرابية على فلسطين، وسذاجة وتسطيح، وهمجية الإعلام المدفوع بدماء البترول.

السيد في خطابه الأخير فك اشتباك ورسم خريطة الحرب المقبلة مع «إسرائيل» وتوابعها من عملاء يدّعون الإسلام، ولون بمصداقية وجود القوة والجهوزية والسلاح المتطور الأرض العربية انطلاقاً من فلسطين، وبعث برسائل إلى الجميع وتحديداً أميركا التي منذ البداية تبرّأت من عملية الصهاينة، ليس حباً بنا، بل لكونها (أيّ أميركا) تدرس واقعها جيداً، فهي تتلمّس يومياً فشل مشاريعها في المنطقة جراء انتصارات متتالية لمحور الممانعة في سورية والعراق واليمن وفلسطين ولبنان، أميركا تعاني من مشاكل اقتصادية وسياسية في الداخل والخارج، وتتلمّس ضعفها مقارنة بما كانت عليه خلال حرب تموز 2006، لذلك السيد حسن تحدث بثقة عارمة وفاهمة للعجز «الإسرائيلي» عن شنّ أيّ حرب دون أن تأخذ الضوء من أميركا، وهذه الأخيرة لم تعطها الضوء الأخضر لأنّ الأمن الأميركي اليوم أهمّ من الأمن «الإسرائيلي»، خاصة أنّ العديد من الكتّاب في أميركا وديبلوماسيتها تعترف بأنّ الدور «الإسرائيلي» السلبي أصبح عبئاً عليها وعلى مصالحها.

هذا الخطاب الذي انتظرته ديبلوماسيات القرار، وزعامات الرمال، وقادة المراقبة والفساد والخيانة، وتناقلته كلّ الوسائل الإعلامية في العالم والعدو قبل الصديق باستثناء قناة «المستقبل» في لبنان والأقنية الخليجية، هو الحدث والمحدث، هو النقاط التي وضعت على خرائط حروب الصهاينة في المنطقة، وهو فصل الانتصار في معركة خاضتها المقاومة على أمل الحرب الكبرى، والتي ستحدّد خريطة جديدة وشبه نهائية للمنطقة، الحرب المقبلة هي الحسم، ونحن أبناء الأرض، ودائماً أصحاب الأرض ينتصرون، لأنهم يستشهدون على تراب يعشقونه ويعشقهم ويعرف رائحة دمائهم!!

العلمانية الغربية ومعضلة استيعاب المهاجرين المسلمين

■ فارس رياض الجيرودي*

اعتادت المنظومة الغربية طوال فترة صعودها وتوسّعها الإمبريالي على حلّ مشاكلها عبر تصديرها إلى الخارج، ويحكي لنا التاريخ الغربي الحديث كيف تمّ تصدير الساخطين دينياً من البروتستانت والكاثوليك الأوروبيين إلى أميركا، ثمّ كيف تمّ التخلص من المجرمين عبر تهجيرهم إلى أستراليا، كما كانت الصهيونية هي الحلّ الغربي للمشكلة التي سُمّيت في القرن التاسع عشر بالمسألة اليهودية، حيث عبّرت الفكرة الصهيونية في العمق عن عجز العلمانية الغربية عن استيعاب جموع اليهود المهاجرين من شرق أوروبا. فعلى عكس الصورة الوردية الساذجة التي يتبناها الكثير من المثقفين العرب عن علمانية الغرب باعتبار أنظمة حكمها مساوية بين البشر وتحفظ لهم حقوقهم الإنسانية بلا تمييز يقوم على عرق أو دين أو معتقد، يظهر التدقيق في تاريخ أوروبا أنّ علمانية الغرب لم تكن أكثر من عقد اجتماعي للتعايش بين الأديان والإثنيات المكونة لكلّ دولة من الدول الأوروبية على حدة، و ذلك بعد عقود من الحروب الدينية الشرسة. لذلك لم يكن ذلك العقد الاجتماعي قادراً على منح الحقوق نفسها للشعوب في المستعمرات خارج أوروبا، كما أنه لم يمكّن المجتمعات الغربية حتى من استيعاب اليهود الأوروبيين، فكانت الصهيونية المنفذ الذي أوجده الغرب لحلّ المسألة عبر تصدير فائض اليهود إلى فلسطين ليشكلوا قاعدة عسكرية غربية متقدمة في المشرق العربي.

لكي تقبل باليهود كمواطنين أوروبيين مساوين لغيرهم، كانت علمانية الغرب بمختلف أنساقها، في حاجة إلى حدث ضخم كالحرب العالمية الثانية بما تضمنته من مآس وجرائم غير مسبوقة في وحشيتها ارتكبها الإنسان الأوروبي في حق أوروبي آخر مثله، فجرى بعد ذلك اختزال تلك الجرائم في العقل الجمعي الغربي في حدث محاولة إبادة اليهود الأوروبيين من قبل النازيين، ليظهر مفهوم «هولوكوست» في الحضارة الغربية كمقدس يحظر الاقتراب منه وتُقمع من أجله حقوق ما يسمى بحرية التعبير.

لكنّ التحدي الأكبر للعلمانية الغربية نشأ مع تدفق جموع المهاجرين المسلمين إلى أوروبا وأميركا الذين فتحت أمامهم المنافذ بعد أن بدأت علامات الشيخوخة تظهر على المجتمعات الغربية، بدءاً من سبعينات القرن الماضي. لقد ضخ هؤلاء دماء جديدة في شرايين المجتمعات الغربية، ومنحوها فرصة لتجديد شبابها، وخصوصاً مسلمو أميركا الذين يتمتع معظمهم بمستويات تعليمية عالية، وينتمون بنسبة كبيرة إلى فئة فوق المتوسطة في المجتمع الأميركي، ورغم ذلك ظلت المجتمعات الغربية في مجملها عاجزة عن هضم هؤلاء و دمجهم، عدا من يتخلى منهم نهائياً عن جذوره الحضارية، فلا يكون المسلم جيداً ومتحضراً ومتحرراً، وفقاً للمفهوم الغربي، إن لم يقبل بإسلام يتوافق مع السياسات الغربية ولم يخدم في الجيوش الغربية التي تخوض معظمها حروباً تفتقر إلى أبسط متطلبات العدل في أكثر من بلد مسلم حول العالم، وعلى الأقلّ يجب أن يكون مؤيداً لتلك الحروب.

من جهة أخرى، أدت العلاقات الاقتصادية والصفقات المالية المشبوهة مع مشيخات الخليج الوهابية، وعلى رأسهم السعوديون إلى تلزيم المساجد والمراكز الإسلامية في الغرب إلى دعاة وهابيين، فنتج عن ذلك انتشار نسخة الوهابي المتطرف بقوة في أوساط المهاجرين المسلمين، أضف إلى ذلك التأثيرات التي أحدثها القرار المخابراتي الغربي بتسهيل منح حقّ اللجوء الإنساني للمعارضين الإسلاميين الهاربين من البلدان العربية بهدف استخدامهم فيما بعد كورقة ضغط ضدّ حكومات تلك البلدان، وقد تحول هؤلاء في كثير من الأحيان إلى قيادات لمسلمي أوروبا وأميركا الذين تنتمي النسبة الأكبر منهم إلى الجيل الثالث ممن لم يتعرفوا إلى الإسلام في بلدانهم الأصلية، بل تعرفوا إليه من خلال أئمة المساجد الوهّابيين وعن طريق أعضاء الجماعات الإسلامية الهاربين من العالم العربي.

و مع ازدياد عدد المسلمين في أوروبا و تماسكهم الإثني (حيث ينتمي معظمهم إلى بلدان المغرب العربي في كلّ من فرنسا و بلجيكا وهولندا، ومعظمهم ذوو أصول تركية في ألمانيا)أصبح هؤلاء يشكلون تجمعات منعزلة في ضواحي المدن الأوروبية، وبدلاً من بذل جهود لاستيعابهم نشأت ضدهم حالة يمينية أوروبية عنصرية معادية للإسلام، تبدّت مظاهرها في ازدياد الاقتراع للأحزاب اليمينية المتطرفة في الدول الأوربية، وفي ظهور وسائل إعلام تتعمد تحقير المسلمين وإهانة رموزهم، حيث نشرت صحيفة دانماركية رسوماً مسيئة لنبيهم وتلتها حملة منسقة في عدد من الصحف الأوروبية أعادت نشر الرسوم ذاتها، وفي البيان التأسيسي لصحيفة «شارلي إيبدو» الفرنسية التي وقع الاعتداء الإرهابي مؤخراً على محرّريها، تبنت الصحيفة محاربة ما أسمته الشمولية الإسلامية في أولوية أهدافها.

لقد ساعدت ظروف التميز العنصري ضدّ المهاجرين المسلمين وانتشار الدعاة الوهابيين بينهم على نشوء جيل، يحمل قسم كبير منه ميولاً متطرفة، كردّ فعل على النظرة الدونية التي يعانون منها في مجتمعاتهم، لذلك بدت الحرب السورية في أحد أوجهها فرصة ملائمة للتخلص من فائض المسلمين ممن لم يقبلوا بالتكيف مع المفهوم الغربي للمسلم الجيد، و هكذا ظنّ الغرب أنّ الفرصة سانحة لإعادة ممارسة لازمة تصدير مشاكله إلى الخارج، وانطلاقاً من أوهام التمركز حول الذات المتفوقة والقادرة على تدجين الآخر والسيطرة عليه لاستخدامه، توهّمت دوائر صنع القرار في الغرب إمكانية التحكم بظروف التجربة السورية، وتفادي تكرار مأساة الأفغان العرب التي انفجرت في الحادي عشر من أيلول فوق واشنطن و نيويورك وفي محطات الميترو في لندن ومدريد، وكانت الحسابات قائمة في البداية على توقع سرعة انهيار الدولة والجيش السوريين، وذلك بناء على معلومات قدمتها الأنظمة الخليجية، ثم جرى الانتقال بعد سقوط الرهان الأول إلى خيار إتاحة الفرصة لـ«داعش» ليقتطع جزءاً من الجغرافيا السورية والعراقية ويقيم كياناً عنصرياً متطرفاً شبيهاً بإسرائيل، يجذب الإرهابيين ويمنعهم من التفكير بالعودة إلى الغرب. لكنّ حسابات الحقل لم تطابق حسابات البيدر، وما كان ممكناً في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين لم يعد صالحاً في عصر أصبحت العولمة التكنولوجية توفر فيه القنوات اللازمة لنقل الأفكار والمشاعر والتقليعات، بما فيها صرعات القتل وقطع الرؤوس، فلم يعد لزاماً أن تضع الحرب في سورية والعراق أوزارها حتى تعود جموع الإرهابيين إلى الغرب، ففي ظلّ بيئة حاضنة للإرهاب في أوروبا وفرها التميز العنصري الغربي ضدّ المسلمين، كان طبيعياً أن يكون الردّ من قبل بعض المتطرفين الإسلاميين المعبأين في فرنسا على استفزاز صحيفة «شارلي إيبدو» للمسلمين، صورة عمّا يقوم به «داعش» من جرائم دموية متلفزة في كلّ من سورية والعراق ولبنان، وهكذا اصطدم الغرب بالحقيقة التي طالما روّج لها ثم تناساها في الحالة السورية ليفاجأ بها في باريس، ألا وهي حقيقة تحول العالم إلى قرية صغيرة تسهل انتقال الإرهاب الذي توفر له الدعم في بقعة منها إلى بقية أرجائها.

* كاتب سوري